

## {حتى يغيروا ما بأنفسهم}

خليل الشيخ \*

### (1)

هذا هو العدد الثالث من "التسامح" المجلة الفصلية التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، وهو يكاد يكون مخصصاً بمحوره ودراساته لتناول جوانب مهمة من المشهد الفكري الراهن في العالم العربي وتحولات هذا المشهد. وهذا التناول العلمي الجاد لهذه المسألة المعقدة يجيء في إطار اهتمام "التسامح" ببناء دورية فكرية جادة، ترتقي بالخطاب الفكري مضموناً وأداءً، وتعمق التواصل بين المفكرين في العالمين العربي والإسلامي، وتبني الجسور بين الثقافات والحضارات. وهذا التناول يجيء ضمن رؤية المجلة التي ستظل تتصدى بالدرس والتحليل للموضوعات والقضايا الفكرية والمعرفية ذات الصلة بحاضر الأمة وتطلعاتها وذات العلاقة، كذلك، بما تملكه هذه الأمة من مخزون حضاري عظيم.

ولا شك أن الدراسات التي تتناول جوانب المشهد الفكري في العالم العربي ذات أهمية بالغة في الوقت الراهن، ولا يرجع ذلك إلى طبيعة اللحظة التاريخية ذاتها فحسب، على ما لطبيعة هذه اللحظة من أهمية، بل يعود ذلك، فيما أحسب، إلى الأبعاد المعرفية لهذا التناول التي تشكل في مجموعها مدخلاً يتيح للقارئ الإطلالة على جوانب أساسية في ذلك المشهد من خلال تعرف المسائل الجوهرية فيه.

لقد عرضت "التسامح" لرؤى باحثين بارزين، دون الصدور عن وجهة نظر معدة سلفاً، فالمجلة تؤثر عرض وجهات النظر المتباينة في الموضوع الواحد، موقنة بأن القارئ قادر على أن يلتقط ما فيها من جوانب تاريخية ونقدية وفكرية، فضلاً عن قدرته على معرفة جوانب القوة والضعف في تلك المقاربات، لأن تحليل القضايا والجوانب الفكرية لا يتم على نحو محايد، كما في الرياضيات مثلاً، فالكتابة في هذه القضايا لأبد أن تتحاز بوعي أو بغير وعي للمنظور الفكري الذي يصدر عنه الباحث، ولكننا نستطيع في "التسامح" أن نؤكد انحيازنا للخطاب الفكري الذي يرتقي بوعي القارئ وذائقته المعرفية، ويخدم الإنسان، ويدراً عنه الجهل والتخلف.

### (2)

إن المشهد الفكري في أية ثقافة هو مركب معقد من صناعة الحاضر والماضي معاً، والتفاعل بين عناصر هذا المشهد هو الذي يفضي إلى بناء رؤى وطروحات ومواقف تختزن الماضي بين طياتها، وتضع الحاضر نصب أعينها، وتحدد ملامح المستقبل الذي

يحرص الناس في أمنياتهم ورؤاهم وتحليلاتهم أن يكون مشرقاً خالياً مما يسم اللحظة الحاضرة، وهو حرص ينبغي أن لا- يظل في عالم التمني والرجاء؛ لأن الدراسات المستقبلية أخرجته من عالم النبوءة والتوقعات الحدسية لتضعه في خانة التخطيط والعمل والحسابات الدقيقة. من هنا يجئ تشخيص بعض جوانب هذا المشهد، وإدراك عناصره. مدخلاً إلى صياغة استراتيجيات مستقبلية تعتمد آليات عمل محددة، وبرامج نوعية تستجيب لمتطلبات هذا المشهد الفكري، بكل متغيراته وتعقيداته وتسهم في البحث عن خطاب فكري جديد، جوهره التسامح الذي يرفض التعصب، والعقلانية التي تستخدم أسس التفكير العلمي، واحترام الاختلاف والإيمان بأهمية التعددية، والحوار مع الرؤى المستتيرة أين ما كانت فـ"الحكمة ضالة المؤمن" لنتمكن في نهاية المطاف، من بناء هوية حضارية قادرة على التجدد الخلاق، الذي يعي طبيعة المتغيرات التي يشهدها العالم الحديث بوتيرة متسارعة، ولا- يتناقض مع الأسس والمقومات التي أرسى البنى الثقافية والحضارية للأمة على امتداد تاريخها.

لقد بات الخطاب الفكري الجديد ضرورة ملحة أكثر من أي وقت مضى؛ لأن هذا الخطاب غدا وسيلة للفهم والاستيعاب والمراجعة النقدية، وأداة للتحليل، وبخاصة أن القارئ العربي يواجه منذ نهايات القرن المنصرم خطابات تعلن نهاية التاريخ، ونهاية الجغرافيا، ونهاية الفلسفة، مثلما يواجه تغيرات شتى تتبدى ملامحها على كل الصعيد: الثقافية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية، وإذا كانت الخطابات المشار إليها توضح آفاق المركزية الثقافية الكبرى وقدرتها على إلحاق الخطابات الأخرى بها أو تهميشها، فإن على الخطاب الفكري الجديد أن يتحرر بوعي نقدي من سطوة تلك المراكز المهيمنة، وأن يستجيب لما يشهده واقعه الذاتي من متغيرات، دون أن ينفصل عن العصر، ودون أن يتورط في الدفاع الآلي عن الأنا، والخوف على هويته من التلاشي أو الذوبان.

### (3)

يستطيع القارئ الكريم وهو يقرأ أبواب "التسامح" من المحور الفكري إلى المتابعات أن يقيم مقارنة بين الرؤى والمناهج والطروحات التي تمثل رؤى الباحثين في قراءة المشهد الفكري، وفي تحليل الكثير من المسائل الفكرية الأخرى المتصلة به أو المنبثقة عنه، فعلى صفحات "التسامح" تجتمع الرؤى الفلسفية التي تحاول أن تفحص مقدار امتلاك الوعي الفلسفي العربي المعاصر لرؤية متكاملة للعالم، بالتحليلات الثقافية التي تدرس سوسيولوجيا الفكر، بهدف معرفة البنى العميقة التي تنتظم حركته، وتحدد خط تطوره، وعلاقته بالآخر، مثلما تتمازج تحليلات التاريخانية، وما يصدر عنها من وعي، بالبحث عن أطر منهجية جديدة لوعي التراث والتاريخ ومقارنته على نحو علمي، وهي أسئلة شديدة الارتباط بوعي العصر، ومسائل التقدم وإشكاليات النهوض، تسهم في فتح الأبواب للمقارنة بين نظم معرفية مختلفة لتكشف طبيعة الواقع الذي تعيشه الأمة: إنساناً وتاريخاً وحضارة، بعد أن ظل تأمل هذا الواقع لحقبة طويلة مسألة استشرافية في المقام الأول، يغيب عنها عنصر الوعي الحضاري الذي يدرك شروط النهوض والتغير الإيجابي.

لقد ظل عنوان كتاب شكيب أرسلان الذي صدر في مطلع القرن المنصرم "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟" يمثل الهاجس التاريخي للإصلاحيين، ولكن هذا السؤال الذي كان ينطوي في باطنه على الحث على التغيرات الإيجابية، غدا في بنية الفكر العربي الإسلامي دعوة للثبات والحفاظ على الهوية.

إننا نعيش في عصر سمته الكبرى التغير، صحيح أن حركة الزمن منذ خلق الله الأرض ومن عليها تسير في الإيقاع ذاته، ولكن هذه الحركة المتكررة تجيء دائماً مملوءة بالتغيرات والاختلافات، فالتغير من سنن الحياة، ولكن هذا التغير لا يصح أن يكون عشوائياً، بل ينبغي أن يصدر عن وعي عميق بالذات الحضارية ومنجزها وإشكالاتها، ورسالتها، بعيداً عن الانبهار بالتجارب الأخرى أو محاكاتها، وبعيداً عن الرفض المطلق للتغير، والخوف غير المسوّغ منه، وهذا يتطلب بناء آفاق معرفية تتطلق من الحاضر للمستقبل، وترفض التقليد الذي يتنافى مع روح العصر، وتؤمن بالقدرة على الإبداع المستقل، وتسعى لابتكار الأسئلة الجديدة التي يجب أن نجد في البحث عنها، وفي تشكيلها والقدرة على طرحها، والبحث عن إجابات مفتوحة لها. وصدق الله العظيم حين قال في محكم التنزيل: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

\*\*\*\*\*

(\* مستشار التحرير.